عملية التنشئة الاجتماعية للطفل المغربي

عبد الواحد الراضي

بشكل ضمني أو صريح نجد لكل مجتمع « مشروعا اجتماعيا » مهيمنا ، بمعنى أن هذا المجتمع حدد لنفسه تطبيق نسق من المعايير والقيم والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي المحدد بدقة بهدف اقامة علاقات محددة بين أعضائه ، ويتصل بكل مشروع اجتماعي نموذج من « الشخصية الاجتماعية » هذا النموذج يسهل دمج الافراد داخل النسق الاجتماعي . وهذه الشخصية الاجتماعية هي نتاج تفاعل امكانيات كل فرد من جهة و « نسق التنشئة الاجتماعية » المصمم من طرف المجموعة بواسطة المشروع الاجتماعي الذي اختارته من جهة أخرى ، ومن الممكن تحقيق نشاط وتوازن مجتمع ما انطلاقا من التقاء تزامني بين المشروع الاجتماعي والشخصية الاجتماعية ونسق التنشئة الاجتماعية للطفل . اننا نقترح ـ من خلال هذا المقال ـ طرح هذه الاشكالية لتحليل المكونات المختلفة في المجتمع المغربي ، ولتقدير درجتها من حيث التزامن ، ولتقييم الدور المتبادل الذي يلعبه كل مكون من المكونات في عملية التغيير النفسي والاجتماعي الذي يعيشه المغرب حاليا . اننا نقترح في هذا المقال عرض النسق التقليدي المغربي لتنشئة الطفل وأثره على شخصية وسلوك البالغ .

من خلال أعمال فرويد وميلاني كلين وكذلك جان بياجي ، وآخرين غيرهم، ندرك أهمية الخمس عشرة سنة الاولى في حياة الطفل على نموه الوجداني ، والثقافي والعقلي . ان هؤلاء جميعا متفقون على الاثر الحاسم الذي تلعبه تلك الروابط التي يقيمها الطفل مع أبويه بوجه خاص ، ومع الوسط الاسروي ، والمدرسي والمهني بوجه عام في تكوين شخصيته ، وفي علاقاته البينشخصية كانسان مراهق .

فالمرحلة الممتدة من الولادة حتى المراهقة ، مرحلة عصبية وحاسمة في تنشئة الطفل المغربي حيث انها تطبع سلوكاته الوجدانية ، والعقلية والمدنية والمهنية والاسروية ، وكل حياته اليومية كمراهق بشكل عميق .

ويمكننا رؤية هذه الفترة من خلال مراحل أربع : تمتد الاولى منذ الولادة

حتى نهاية السنة الثانية ، يطبعها اشباع من الناحية السيكولوحية اذا بقى الطفل على قيد الحياة بالرغم من غياب شبه تام للشروط الضرورية المرتبطة بالمستوى الاقتصادي والاجتماعي لوسطه الاسروي ، كنقص في المواد الغذائية، والصحيـة وغيـرهـا .

ان الطفل المغربي يظل في اتصال شبه دائم بأمه حتى وقت الفطام ، فهو ينام في بيتها وأحيانا على فراش نومها ، وكلما بكى خلال النهار قدمت أمه ثديهـا بكـل عفـويـة .

في الاوساط الشعبية ، يقضي الطفل معظم يومه على ظهر أمه ، التي تقوم بتدبير المنزل أو بالعمل في الحقول الزراعية . ولعل عدم وجود غرفة صغيرة خاصة بالطفل ، كان أهم سبب لتفسير مرافقته باستمرار للبالغين من الاسرة الذين يبدلون في العناية والاهتمام به لهذه المظاهر الجمعية الوجدانية يزداد اهتمام الاب بابنه بين نهاية السنة الاولى والثانية من عمره ، وعادة ما تلين هذا الاهتمام حساسية خاصة عندما يتلفظ الطفل بكلمات لاول مرة ، كما يخلف هذا الاهتمام ابتهاج حينما يخطيء الطفل على المستوى اللغوي أثناء عملية التعلم

بعد هذه المرحلة يصبح الطفل مركز اهتمام الكل ، وأيضا الشغل الشاغل، حيث يشكل أداة ترفيه لاسرته ، وللضيوف ، اذ تعرض عليهم قائمة للكلمات التي تعلمها الطفل متضمنة حتى كلمات الشتم والسب .

ورغم انعدام الانسجام ، وفوضى الجو التربوي الذي يكتنف الطفل فان الحالة النفسية لهذه المرحلة تظل ايجابية ، ذلك أن الام تهيء لابنها من الدفء الوجداني والامن النفسي ، ما يجعله وثيق الصلة بها ، وبصفة اجمالية مـا يجعله يحصل من خلال هذه العلاقات على اشباع يفوق نسبة حرمانه .

ان عملية تأديب الطفل على التبول ، تعتبر المصدر الاساسي للتوتر بين الطفل وبيئته الاجتماعية ، ويلاحظ أن هذه العملية تمارس باهتمام بالغ وسط الاسر الحضرية ، بينما لا يهتم بها في الاسر البدوية حيث يكتسبها الطفل القروي تلقائيا . عادة لا تصاحب مرحلة الفطام المتأخر أي اضطرابات خطيرة .

من ناحية أخرى ، فان اشتراك الطفل في حياة البالغين منذ الاسابيـع الاولى لولادته ، يضعه مباشرة وسط اهتمامات كثيرة تساعد على نمو ذكائه الحسي الحركي ، كما يكشف نوعية الانجازات التي يمكن للطفل المغربـي خاصة والافريقي عامة أن يؤديها عند تطبيق رائز الطفولة ، حيث يبدو بوضوح مدى تفوق الطفل الافريقي على نظيره في الدول المصنعة . هذا التفوق يعكس التحسن الذي يمس النمو السيكولوجي الذي يرجع أساسا الى نوعية العلاقات بين الطفل وبيئته الاجتماعية ، وأمه على الخصوص . هذا ما يتعلق بالفترة الاولى من حياة الطفل ، أما الفترة الثانية فتمتد بين بداية السنة الثالثة الى نهاية السنة السادسة . وتتميز بالتغير الجذري والمعكوس في علاقات الطفل المغربي بأسرته . ذلك أن التحسن الذي يطرأ على لغة الطفل ومشيته يعد عاملا

سلوكاته ليوافق عليها البالغون وخاصة الآباء .

ان تظافر كل هذه العوامل يدمي لدى الطفل المغربي الاحساس بالالم الذي يدفعه الى الانفعال ، بحيث يترجم هذا الانفعال في وقت متقدم من عمره بسلوك نكوصي « ارتداد الى مستوى عقلي أو سلوكي سابق » ، يتوخى من وراءه الطفل أن يصبح من جديد صبيا لينال عطف واهتمام أفراد أسرته خصوصا أمه ، ليرغمها على الاهتمام به ووضعه موضع الاعتبار ، لكن هذه السبيل لا تؤدي الى الهدف المنشود ، بل على العكس تسبب للطفل مضايقات جديدة تجعله هذه المرة يتخذ موقف المعارضة والعدوان . بيد أن هذه العدوانية تتجه نحو الطفل نفسه ، موقظة لديه الخوف من فقدان الحب ، هذا الخوف الذي لا مفر منه .

واذا كان عمر الطفل حوالي ثلاث الى أربع سنوات ، فانه يحتاج الى التشجيع والعطف ، ليتمكن من تغيير وتطوير سلوكه تغييرا ناميا ايجابيا ، الا أن استجابة المجتمع عادة ما تتسم باللامبالاة ، والمضايقة والسخرية والتهكم . مما يسبب في اضطراب « الانا » عند الطفل وفقدان الثقة بالنفس .

ان النقص المعرفي والجسمي للطفل بالنسبة للبالغ لا يسمح له بتعويضه بسلوك التسامح الذي يمكن أن يجد فيه الامن والاطمئنان . وبهذه المحاولات المتتالية بغية الانضباط وتأكيد الذات ، والتي تأخذ حتما بعض صور الرفض والمعارضة ، يفشل الطفل في أغلب الاحيان لان المجتمع لا يقبل الرفض والمعارضة مهما كانت صورتهما .

من المفروض أن تأكيد الذات يأخذ سنده من ارادة البالغين ، من هنا كان تسامح الآباء تجاه بعض السلوكات المعارضة شيئا ضروريا . فالاب يدرك مع من يبدي المحبة والتفاهم والبشاشة ، انه يبديها مع الآخرين ، في حين يواجه أبناءه بمواقف سلطوية من شأنها أن تنمي لديهم احساس التوجس وفي بعض الاحيان الحقد ، ونادرا ما تولد لديهم الاحساس بالحب والاكبار ، لان ازدواجية الاحساس تجاه الاب ضرورية لابطان الصورة الابوية التي تساعد على كسب الاطمئنان الداخلي ، والمراقبة الذاتية ، وكذلك على تكوين « الانا الاعلى » . وبدل التصرف بمحاكاة أو بتوجس ، فان الطفل يتمثل كل المنظومة بما فيها من مواقف ، ومتطلبات ، وموانع أبوية ، انها الارادة الابوية تبطن داخل الطفل ، الذي لن يكون ، مستقبلا ، في حاجة ماسة لوجودهما الفعلي ليتصرف بصورة مقبولة . وليدافع أيضا عن اطمئنانه يتشكل ضمير الطفل ليحل محل أبويه ، ويصبح هذا الضمير مصدر تهديد وأمن بحيث بغدو اتباع أوامره يوازي محبة الابوين وعصيانه يولد الاحساس بالذنب والندم ويوقظ فيه التهديد القديم المرتبط بحالة الانعزال .

على المستوى الثقافي تلعب الأسرة دورا مماثلا لدورها على المستوى الوجداني . فشروط الحياة تتغير بشكل كبير بالمقارنة مع المرحلة الاولى .

سلوكاته ليوافق عليها البالغون وخاصة الآباء .

ان تظافر كل هذه العوامل ينمي لدى الطفل المغربي الاحساس بالالا أ.ن الذي يدفعه الى الانفعال ، بحيث يترجم هذا الانفعال في وقت متقدم من عمره بسلوك نكوصي « ارتداد الى مستوى عقلي أو سلوكي سابق » ، يتوخى من وراءه الطفل أن يصبح من جديد صبيا لينال عطف واهتمام أفراد أسرته خصوصا أمه ، ليرغمها على الاهتمام به ووضعه موضع الاعتبار ، لكن هذه السبيل لا تؤدي الى الهدف المنشود ، بل على العكس تسبب للطفل مضايقات جديدة تجعله هذه المرة يتخذ موقف المعارضة والعدوان . بيد أن هذه العدوانية تتجه نحو الطفل نفسه ، موقظة لديه الخوف من فقدان الحب ، هذا الخوف الذي لا مفر منه .

واذا كان عمر الطفل حوالي ثلاث الى أربع سنوات ، فانه يحتاج الى التشجيع والعطف ، ليتمكن من تغيير وتطوير سلوكه تغييرا ناميا ايجابيا ، الا أن استجابة المجتمع عادة ما تتسم باللامبالاة ، والمضايقة والسخرية والتهكم . مما يسبب في اضطراب « الانا » عند الطفل وفقدان الثقة بالنفس .

ان النقص المعرفي والجسمي للطفل بالنسبة للبالغ لا يسمح له بتعويضه بسلوك التسامح الذي يمكن أن يجد فيه الامن والاطمئنان . وبهذه المحاولات المتتالية بغية الانضباط وتأكيد الذات ، والتي تأخذ حتما بعض صور الرفض والمعارضة ، يفشل الطفل في أغلب الاحيان لان المجتمع لا يقبل الرفض والمعارضة مهما كانت صورتهما .

من المفروض أن تأكيد الذات يأخذ سنده من ارادة البالغين ، من هنا كان تسامح الآباء تجاه بعض السلوكات المعارضة شيئا ضروريا . فالاب يدرك مع من يبدي المحبة والتفاهم والبشاشة ، انه يبديها مع الآخرين ، في حين يواجه أبناءه بمواقف سلطوية من شأنها أن تنمي لديهم احساس التوجس وفي بعض الاحيان الحقد ، ونادرا ما تولد لديهم الاحساس بالحب والاكبار ، لان ازدواجية الاحساس تجاه الاب ضرورية لابطان الصورة الابوية التي تساعد على كسب الاطمئنان الداخلي ، والمراقبة الذاتية ، وكذلك على تكوين « الانا الاعلى » . وبدل التصرف بمحاكاة أو بتوجس ، فان الطفل يتمثل كل المنظومة بما فيها من مواقف ، ومتطلبات ، وموانع أبوية ، انها الارادة الابوية تبطن داخل الطفل ، الذي لن يكون ، مستقبلا ، في حاجة ماسة لوجودهما الفعلي ليتصرف بصورة مقبولة . وليدافع أيضا عن اطمئنانه يتشكل ضمير الطفل ليحل محل أبويه ، ويصبح هذا الضمير مصدر تهديد وأمن بحيث يغدو اتباع أوامره يوازي محبة الابوين وعصيانه يولد الاحساس بالذنب والندم ويوقظ فيه التهديد القديم المرتبط بحالة الانعزال .

على المستوى الثقافي تلعب الاسرة دورا مماثلا لدورها على المستوى الوجداني . فشروط الحياة تتغير بشكل كبير بالمقارنة مع المرحلة الاولى .

علما يرافق الطفل أبويه في تنقلاتهما كما لا تسمح له الاسرة بأن يتعدى فضاءا جغرافيا محدودا ، كي يظل تحت مراقبتها المستمرة .

ان فرض اقامة جبرية على الطفل تحد مجال تحرياتـه واكتشافاتـه ، وتقلص بالتالي الحوافز التي تنمي خاصية الذكاء التطبيقي . كما أن غيـاب اللعب خلال هذه المرحلة من عمر الطفل يقوى عدية الانطباع بفراغية الحياة من كل محتوى . وحتى اذا قدمت للطفل لعب في الاعياد الدينية فان هـذه اللعـب ستأخذ مكانها وراء زجاج متحف البيت ، قبل أن تداعبها أنامل الطفل .

« وفي الوقت الذي يكون فيه الفضول الطبيعي بحاجة الى أن يمارس بكيفية ايجابية ، فانه لا يتعرض لعدم التشجيع ، بل والى الكبت . وذلك أن كل تساؤل يأتي من جانب الطفل يعتبر بمثابة وقاحة مما يضطره الى التخلي عن طرح الاسئلة ، معتقدا بأن الظواهر التي تدفع اليها لا تستحق انتبـاه الكبار ، ولا حتى اهتمامه هو : فيتخذ تجاه العالم موقف عدم الاكتراث ونتيجة لذلك ، فان موضوعة السببية التي تنمو بفضل لماذا ؟ وكيف ؟ تظل في حالة كمون . وفي المقابل نجد الوسط العائلي وخصوصا النساء يعطين للطفل رؤية مفزعة عن العالم ، مسكونا بالاغوال والجن وبقوى أخرى ، معادية للانسان الذي يجب عليه أن ينقاد لممارسة أعمال سحرية وخرافية للفوز برضاهم ، فيرسخ في ذهن الطفل أن الانسان لا يستطيع شيئا بنفسه ، وكل ما يمكن أن يناله من خير أو شر هو من عمل قوى خارجية لا ضابط لها . هذا التأويل للعالم يجعل من العسير بل من غير المقبول ، تفسير العالم تفسيرا عقلانيا بواسطة قوانين الطبيعة ، ويشكل عقبة في سبيل البحث عن الحقيقة ، مستقبلا ، بتفكيـر منطقي » (2)

وفي نهاية المرحلة الثانية أي حوالي السن الخامسة ، يصبح حضـور الطفل في البيت غير محتمل حيث يرسل الى « المسيد » « الكتاب القرآني » الذي يلعب دورا هاما جدا في حياته الوجدانية والثقافية . فتصرف الفقيه يحمل أعلى درجات العداء والضغط الذي يمارسه الوسط على الطفل ، فهـو مكلـف بالتعليم والتربية مما يسنح له أكثر من غيره بفرصة الحكم على الطفو سواء بدعوى أنه لم يحفظ الدرس أو بسبب « سلوكه السيء »

وما دامت سلطة الفقيه غير محدودة ، فهو يعاقب الطفل عن الاعمال التي يقترفها حتى خارج « المسيد » ذلك لانه اتفق مع الاب الذي قال له يوما بصوت واضح مفهوم ، المثل الشهير « أنت تقتل وأنا أدفن » هذا المثل يزيل من ذهن الطفل كل امكانية لتدخل الاب في حالة تعسف الفقيه ، بالاضافة الى الاعتقاد بأن العلم لا يحصل عليه الانسان الا بالخشية والالم ، والمتمثلين في ترقب المـوت .

وعن طريق « الفقيه » يقوى الاب سلطته الذاتية ، حيث يتواطأ معـه لتحقيق « التهذيب والتأديب » اللذين يكمنان ، قبل كل شيء ، في الطاعة العمياء

لسلطة البالغين . واذا كان الكتاب القرآني مؤسسة وظيفتها الاساسية «الحفاظ على الهيكل الاجتماعي » فانه ينبغي على « الفقيه » ، حسبما تفرضه التقاليد أن يعلم الطفل ويروضه على احترام الابوين والسلطات ، والوجهاء ، والشيوخ، هذا التصور تبنته بعض الاسر بالرغم من وعيها التام بهزال المردود ، خاصة ما يتعلق منه بالكم القرآني الذي يحفظه الطفل . من هنا كنا نسمع بعض الآباء يقولون للفقيه « علم ابني الادب والتربية الحسنة ، أما الباقي فالله يجبره » .

ان الطفل الذي ينتمي الى أسرة كادحة ، غالبا ما يقوم بتدريب قصير الامد في « المسيد » قبل أن يستعمل في قطاع الانتاج ، وذلك حتى يعطى له تكوين أولي ، وحتى يتعود على تقبل كل ما يؤمر به بعد مغادرة الكتاب القرآني

بالاضافة لوظيفة التعليم والتأديب، يزاول الفقيه نشاطات أخرى متكاملة مع بعضها مثل ممارسة الشعوذة والسحر ، وما يتفرع عنه من صناعة للتمائم، هذه النشاطات يدعمها سلوك النساء الغارق في الاوهام والتطير ، كل هذه المظاهر تقوي الاتجاه السحري بشكل طبيعي في تفكير الطفل خلال هذه الفترة. وكل هذا يمر في جو يطغى عليه الخوف ، وعدم الثقة ، والشكوى والانتهازية التي تطبع علاقات الاطفال فيما بينهم كما تطبع علاقاتهم بالفقيه . ولايقاف عدوان الفقيه يتخذ الطفل كل أسباب الدفاع المتمثلة في المكافآت أو المنح المادية أو المعنوية علاوة على الاجرة النصف أسبوعية الاربعاء والاحد وبذلك يقوم الطفل بأولى محاولاته في الرشوة .

اذا انقطع عن الدراسة حوالي سبع أ وثماني سنوات ، يعهد به الى صانع تقليدي بغية تكوينه مهنيا ، حيث يستعمل كمساعد « متعلم » في المعمل أو لخدمة عائلة « المعلم » . ان سلطة هذه الاخيرة تشبه سلطة الفقيه باعتبارها غير محدودة ، وبكونها تعزز سلطة الاب وكباقي « المعلمين » ، فان العقاب الجسدي يعتبر ممارسة عادية ، الا أن الصانع التقليدي يتميز عن الفقيه بنوع من الافراط في السب والشتم ، مما يفرغ الطفل من كل محتواه بشكل حتمي . كل هذه الضغوط تتظافر لتسلط على الطفل المغربي في هذه المرحلة من عمره ، ولتنمي لديه مجموعة من الآليات التي تساعد على البدء في ابطان السلطة ، والقيم التي تواضع عليها البالغون ، والتي تفضي الى توقف نمو «الانا الاعلى».

أما الفترة الممتدة من ست الى اثني عشرة سنة ، فتعتبر المرحلة النهائية في تكوين شخصية الطفل ، ذلك أن هذا الاخير يتخذ موقفا أكثر حيوية ونشاطا ينشد من ورائه اقامة علاقات جديدة ، مع أبويه ومع الغير ، تقوم على أساس تبادل الاحساس ، والتقدير والتقويم . وهكذا وبالتدريج الطبيعي يدرك الطفل أن القوة ، والقدرة ، والفائدة مفاهيم نسبية ، وأن قيمته ـ وقيم الآخرين أيضا ـ تقوم على أساس المساواة بين جميع أعضاء المجتمع ، وقد كان الطفل فيما مضى لا يعرف سوى التمركز داخل ذاته ، الناتج عن قسوة البالغين . الا

ان التقاليد المغربية تمنع على الطفل أن يصدر أي حكم على الابوين أو البالغين عموما حتى لا يحل به غضب السماء الذي تتضمن معانيه كلمة « السخط » . وهكذا تعارض التقاليد قيام أي نسق مرجعي يمكن استخدامه في عملية تقويم سلوك الآخرين قصد تصحيح السلوك الشخصي حسب المنظور التقليدي ، يتحتم أن يكون الاحترام أحادي الجانب ، غير مشروط ، ومطلق تجاه الابوين، والشرفاء ، والوجهاء ، والسلطات العمومية . وهكذا تفرض التقاليد على الطفل هذا الشكل من العلاقات مع الآخرين ، ان النمط المفروض نمط قائم على الانقياد والطاعة العمياء ، نمط يفضي الى الحصول على « الرضى » .

ان موقف المجتمع المغربي من اقامة علاقات متبادلة بين الطفل والبالغين، يؤدي حتما لدى الطفل الى الاحساس بانعدام قيمته الذاتية ، وعبر الاسقاط الى « انعدام التقويم المتبادل » مما يقوى العلاقات السلطوية .

ان الآباء يضعون أبناءهم موضع التحقير واللاقيمة كلما اعتقدوا أن سلطتهم أصبحت مهددة برغبة أبنائهم نحو الاستقلال . تجاه الآلام التي تخلقها هذه الاوضاع ، فان الطفل يحاول التكيف عن طريق التخلي عن التحرر أي عن طريق كبت رغبة الاستقلال أولا ثم عن طريق الحيلة والانتهازية ، يتقي كل معارضة ، ويكسب بعض مظاهر العاطفة الابوية . انه لا ينفعل بالثورة المعارضة الا لماما ، لكونها تجلب عليه سخط الابوين ولوم المجتمع . ومنذ ستة قرون عقد ابن خلدون فصل في كتابه « المقدمة » سماه :

« فصل في أن الشدة على المتعلمين مضرة بهم » جاء فيه ما يلي :

« وذلك أن ارهاق الجسد في التعليم مظهر مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد لانه من سوء الملكة . ومن كان مرباه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم سطا به القهر ، وضيق على النفس من انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعا الى الكسل ، وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه ، وعمله المكر والخديعة لذلك . وصارت له هذه عادة وخلقا وفسدت معاني الانسانية التي له من حيث الاجتماع والتمرن ، وهي الحمية المدافعة عن نفسه ومنزله وصار عيالا على غيره في ذلك ، بل وكسلت عن اكتساب الفضائل والخلق فانقبضت عن غايتها ومدى انسانيتها فانتكس وعاد في أسفل السافلين .

وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة الكافلة له رفيقة به . تجد ذلك فيهم استقراء وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالحرج ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد وسببه ما قلناه ، فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده ألا يستبدوا عليهم في التاديب » (3)

ان تكوين الضمير الاخلاقي ، أي نمو الحس الاخلاقي كاحترام القانون،

والاستقامة ، والاحساس بالعدل ، كلها أمور مرتبطة بمفهوم التقويم المتبادل .

فالاحساس باحترام القانون مثلا ، يتطور مع نمو الطفل عبر الطفولة الاولى ، حيث يضفي الطفل على القانون قيمة مطلقة باعتباره منبثقا عن أصل غير طبيعي . فالقانون من اختصاص الاله ، والابوين والبالغين لذا ينبغي أن يحترم ككل ما يصدر عن هذه النماذج من السلطة .

وعبر التطبيق الاجتماعي لنموذج المساواة ، أي في مرحلة متأخرة من الطفولة ، أثناء اللعب في الوسط الطفولي ، يتصور الطفل القانون كانعكاس لاتفاق ، ولارادة مشتركة بين الافراد . وهكذا فاحترام الاتفاقية يحتم تورط الانا وليس التدخل المستمر لارادة خارجية . غير أن العلاقات بين البالغ والطفل في السياق التقليدي يكتنفها مناخ صارم يتمثل في مجموعة من العلاقات الموجهة من البالغ الى الطفل المتسمة بالقوة . بالاضافة الى هذا فان عدم انسجام انفعالات البالغين مع سلوكات الطفل ، لا تسمح لهذا الاخير أن يقيم نظاما منطقيا يتصرف انطلاقا منه لانه حسب مزاج اللحظة للبالغ ، نفس التصرف من طرف الطفل يمكن أن يسامح أو يشجع عليه أو يعاقب عليه . هكذا يفقد الطفل النظام الذي يساعده على ضبط تصرفاته من جهة ، ولا يستطيع التنبؤ بانفعالات البالغين من جهة أخرى ، مما ينتج عنه اتخاذ مواقف ، تعكس شكه العميق . وتردده المتجليين في مجموعة من المظاهر كفقدان الثقة بالنفس ، والارتجال والتسرع ، والقسوة ، والادعاء .

ان غياب التقويم المتبادل يعرقل ، بطبيعة الحال ، تكوين حس الاستقامة ، الذي يعني رفض الغش والتدليس كعلاقات تربط بين أشخاص يحترمون أنفسهم . فمخالفة القانون الاجتماعي أو الاخلاقي ، وممارسة الغش للتملص من بعض بنود الاتفاقية يفضيان لتحطيم هذه الاخيرة ليس لاسباب سحرية أو اخلاقية مجردة ، لكن للهدم الذي يمس الاحترام المتبادل الذي بدونه يستحيل اقامة أي تعاون . واذا كان الضغط أساس نظام اجتماعي ما ، فانه يصبح الحافز الاساسي لاي نمط من أنماط السلوك .

أما بخصوص تكوين حس العدالة، فهو مربوط بالممارسات المتعلقة بالاحترام المتبادل والتعاون ، وما دام القانون لم يتم بعد تمثله باطنيا ، وما دام يعتبر من وضع الابوين والبالغين ، فان حس الطاعة يقصي حس العدالة : وحتى نهاية الطفولة الاولى يعتبر الطفل كحقيقة كل ما يصدر عن البالغ . لكن ابتداء من سبع الى ثماني سنوات ، في بعض الاحيان من ثمان الى تسع سنوات فان الاتفاق يقصي الطاعة من العلاقات بين الاطفال ، وبالامتداد بين الطفل والبالغ، حيث تحل العلاقات المتبادلة محل العلاقات الاحادية الموجهة ، ان الرجوع الى هذه الاخيرة ، يسبب الاحساس بانعدام العدالة .

وهكذا فالتقويم المشترك والمتبادل يدفع بالطفل الى « تنظيم جديد للقيم الاخلاقية يتضمن استقلالا نسبيا للضمير الاخلاقي للافراد » ان هذا

التنظيم يعتبر قاعدة « لأخلاقية التعاون التي تشكل صورة للتوازن الاعلى بالنسبة لاخلاقية الانقياد البسيطة » .

يستفاد من مرحلة المراهقة عن طريق الطفل الذي يؤكد شخصيته ويدمج نفسه في المجتمع ، أن تأكيد الشخصية يترجم على المستوى الوجداني العاطفي بضبط احساساته تجاه الابوين ، وبقدرته على ابراز التعاطف والصداقة تجاه الاشخاص خارج الوسط العائلي . أما على المستوى الاخلاقي فيتمكن المراهق المغربي بصفة نهائية من ابطال السلطة الابوية والاجتماعية واستكمال نفسه التقويمي ، ووعيه الاخلاقي ، ويحقق الانقياد الذاتي لنظام موجود .

أخيرا على المستوى الثقافي ، يكتسب المراهق فكرا مجردا ، وصوريا ، يساعده في البرهنة على الفرضيات ، وفي استعمال لغة رمزية . هذه الامكانيات الجديدة تسهل عليه فهم الانساق والمنظومات ، كما تفتح أمامه آفاق المذاهب الفلسفية ، والاقتصادية ، والسياسية والاجتماعية ، وتدفعه ليعد هو نفسه « فرضيات » وأن يقوم باختيارات في شتى المجالات المهنية والدينية ، وكذلك المتعلق منها بالحياة الزوجية ، هذه الاختيارات الموضوعة صممت بشكل حيوي يساعد المراهق على الاندماج في المجتمع ، وذلك عن طريق « مخطط للحياة » أي بواسطة صورة مثالية تقريبا تحدد الاهداف التي ينبغي تحقيقها في الحياة ، كما تحدد التغيرات التي يؤمل حصولها داخل المجتمع الذي يمارس ذلك المخطط . ان هذا الاخير سيكون في الوقت ذاته « مصدر نظام للارادة ، ووسيلة للتعاون » .

واعتبارا للتاريخ الوجداني ، والاخلاقي ، والثقافي للطفل المغربي الذي تربى بطرائق وتقنيات تقليدية ، ومراعاء لتجربته بخصوص العلاقات البيشخصية « Interpersonnelles » فان المراهق المغربي ينبغي عليه منطقيا، في حالة تفوق مدرسي ، أن يتمثل باطنيا التبعية والانقياد التام أو الجزئي للمجتمع ، ولتقاليده ، وللسلطة ، سواء كانت شعبية أم دينية أم مادية أم علمية . وفي حالة فشل مدرسي ، فان المراهقة تكسب امتدادا من خلال ممارسات المراهق المتسمة بالعنف الذي يؤدي الى الضياع ، خاصة في الوسط الحضري وسط هذه الظروف ، حيث تكتنف طفولة المراهق حياة انفعالية مضطربة ، سببها نقص متعدد الوجوه والمظاهر ، فان المراهق يستمر في البحث لاشباع حاجاته ، وذلك بتقديم هبات يتوسل الشاب المراهق من خلالها لنيل الحب والقيمة لدى أبويه ، اللذين يتدخلان في شؤون حياته الخاصة . هذا السلوك من جانب المراهق يترجم التبعية الوجدانية ، ويفسر التعلق الطفولي تقريبا للشاب المراهق بأبويه وبأسرته عموما .

ان التبعية العاطفية ، والاخلاقية ، الثقافية تعرقل عملية مواجهة الحياة من طرف الشباب المراهق الذي يبحث فقط عن اكتساب التقنيات التي اعتاد

المجتمع استعمالها ، فهو مقتنع بأن الحكمة وسر النجاح تكمنان في التقليد الذي يحسن معرفته وتخليده .

في حالة تمدرسه سنوات لا بأس بها ، فان المراهق يأخذ في حسابه آراء أساتذته ، كما أن حسه النقدي ينمو ، وفكره الانتقائي كذلك . أما قدراته التقويمية فهي محدودة وقلما تتاح له الفرصة لاستخدام هذه القدرات لان الاختيارات الاساسية التي ترتبط بحياته عادة ما تكون من صنع المجتمع أو الاسرة التي تختار له الاصدقاء والاعداء والمهنة وكل ما يتصل به حتى الاسماء الشخصية لابنائه .

ان اطار الحياة في السياق التقليدي ، مرسوم ، ويكفي الشباب المراهق أن يندمج فيه وان يستعد بالقرب من أبويه ليخلفهما في انتظار اعادة نفس الدور مع أبنائه داخل مجتمع يحتاط من التغير والتجديد .

وهكذا يتصور الشاب المراهق التنظيم الاجتماعي على أنه قدر ، لا يملك الانسان أية وسيلة لتغيير بنياته الاقتصادية والاجتماعية ، لذلك فهو لا يفكر في حركة فردية أو جماعية قادرة على تغيير المجتمع وتقريب الهوة الفاصلة بين الطبقات المكونة له ، ان الانسان الذي تعمق فيه هذا التصور يبحث بكل الوسائل لاكتساب النفوذ والسلطة (لان النفوذ يخول لصاحبه حق الاستهانة بالآخرين) التي تعتبر مصدر الشهرة والقيمة أو التموضع تحت حماية أولئك الذين يملكونها .

ترجمة : اعنون عبد الحميد

المراجع :

(1) انظر النص الاصلي للمقالة في عدد 1969 من
Annales Marocaines de Sociologie : page 33

(2) هذا الجزء مترجم ضمن الترجمة العربية لكتاب « مستقبل شبيبتنا في أفق الثمانينات » د. محمد الحبابي . ت . الاستاذ محمد برادة

(3) مقدمة ابن خلدون : فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرة بهم .